عيش الأمومة في البحث والبوح

عزّة شرارة بيضون(*)

من أساتذة الجامعة اللبنانية (سابقًا)، باحثة في شؤون المرأة والجندر.

مستخلص

الغرض من هذه الورقة هو الإشارة إلى أشكال من بداية الاهتمام لدى كاتبات عربيات بموضوع «عيش الأمومة» (Mothering)، المتوافق حينًا مع الأمومة المرغوبة اجتماعيًا (Motherhood)، والمخالف لها في حين آخر. وقد عمدت الكاتبة إلى استخراج أمثلة من ثيمات في نصوص عالجت، بالبحث الميداني أو بالبوح الذاتي، عيش الأمومة في سياقات متنوّعة، بيانًا لتعدد صور اختبار ذلك العيش وتنوّعه؛ وذلك، نقضًا لأفكار تروّج لأمومة «كونية» معيارية، ثابتة الملامح، في خطاباتنا العامة. في ملحق للورقة مراجعة لكتب/ نصوص خمسة تناولت العيش المذكور: أبحاثًا ثلاثة، وشهادتَين اثنتَين.

كلمات مفتاحية: عيش الأمومة؛ الأمومة؛ سياقات عيش الأمومة؛ أمومة المتن؛ أمومة الهامش.

Abstract

The purpose of this paper is to examine instances of growing interest among Arab writers in researching “mothering” compatible (or not compatible) with the socially desirable motherhood. The author extracted examples of themes in texts that featured mothering in different contexts, through both field research and subjective disclosure, as an illustration of the multiplicity of forms of experiencing motherhood; this is in contrast with narratives that promote a normative and universal motherhood, with fixed features in our public discourses. In an appendix to the paper, are reviews of five books that dealt with afore_mentioned mothering: Three field studies and two testimonies.

Key words: mothering, motherhood, mothering context, marginal motherhood, socially desirable motherhood.

(*) البريد الإلكتروني: azzabaydoun@gmail.com

تقديم

منذ سنوات كثيرة، حين اتخذت ابنتاي قرار الهجرة، تملّكتني مشاعر متجاذبة صعُب عليّ احتواؤها. ومن تداعيات حالتي تلك، أن ألحّ عليّ موضوع «عيش الأمومة»، فتنبّهت حواسي لتلتقط ما كان قد فاتني من سلوكات واتجاهات أمهات من قريباتي ومعارفي تشي بصور متفاوتة من ذلك العيْش، لعلّ التفاوت في التعامل مع هجرات أولادهن، وخواء «عشّهن» منهم، من بعض مظاهره. بدا لي هذا العيْش قائمًا على متصلّة (Continuum) يقع في طرفها الأول أمومة المتن المستقرّة على حال ثابتة، مطمئنة لذاتها وقابلة بتقلباتها ومستسلِمة لمساراتها «الطبيعية»؛ بينما تقع في طرفها المقابل أمومةٌ حائرة تتلمّس معالمها بقلق يوازي، على الأرجح، القلق الذي رافق مسار التكوّن لهوية أنثوية جديدة، مغايرة لهوية أمهاتنا في أكثر من ناحية[1].

هكذا، انضمّ موضوع «عيش الأمومة» إلى هواجسي البحثية. على أن التدقيق في معاني ذلك العيْش، الذي يسبق، في العادة، مقاربة الموضوع «منهجيًا»، كان يتأجّل[2] لعلل لم تكن دائمًا مسوَّغة؛ وبدا لي أن موضوعًا لصيقًا بوجودنا محتاجة مقاربته إلى فسحة نفسية بطيئة التكوّن. كما أن الاعتياد على الإضاءة المعرفية على موقعه الحميم الغائم، يعوزه التخلي عن أشباحه الأليفة، وتهيؤٌ لا تكفي الإرادة للمباشرة في تقصّيه.

وكما هي حالنا، نحن الباحثات والباحثين، وفي كل مرّة يراودنا سؤال حول مسألة ما نرغب في دراستها، نستدعي أعمال زملائنا للتخفيف من وحشة فعل التأمّل فيها، فنقرأ ما كتبه باحثات وباحثون سبقونا إلى تناول السؤال نفسه، أو ما جاوره من أسئلة. في انشغال سابق شبيه، كنتُ أجد الكثير من أدبيات كُتبت لمعالجة موضوع أثار اهتمامي. كنت أقع، دائمًا تقريبًا، على محاولات متعددة المحاور والزوايا لمعالجة كل مسألة أثارت تساؤلاتي، وخصوصًا باللغة الأجنبية التي أتقنها. وأنا أجد ذلك «طبيعيًا». فالأسئلة التي يطرحها الباحث على نفسه تحوم في أجواء «روح العصر». وما يفعله الباحثون، في رأيي، لا يتعدّى التقاطها. اهتمامي بموضوع «عيش الأمومة» لم يكن استثناءً، إذ وجدتُ أن كثيرًا كتب عنه في خضم حركة تحرر المرأة ـ الموجة الثانية، وما تلاها، وبمقاربة نسوية عملت على تفكيك المركّب (Construct) في ميادين العلوم جميعها[3]. وقد عَرف الاهتمام في الموضوع أوْجَهُ في الولايات

---

(1) «الهوية النسائية الجديدة» كانت من أوائل انشغالاتي البحثية. انظر: عزة شرارة بيضون، «الهوية النسائية الجديدة،» <https://wordpress.com/post/azzachararabaydoun.wordpress.com/281>.

(2) في مراجعتها لكتاب **اللاجئات السوريات إلى لبنان: تحديات الأمومة** تكتب نجلاء حمادة في مطلعها: «حاولنا مرارًا في «تجمع الباحثات اللبنانيات» (جمعية لبنانية) أن نضع كتابًا سنويًّا عن الأمومة، ولم نوفَّق، ذلك أنّ هالة الشغف والامتنان المُحيطة بالأمومة تُصعِّب الاقتراب الذهنيّ منها، كما أنّ التناقضات حولها تجعلها موضوعًا شائكًا ومُحيّرًا. فالأمومة تُبجَّل بل تُقدَّس تارة ويُجحف بحقها تارات»، دورية **أفق** (مؤسسة الفكر العربي) العدد 1423ـ126، 21/3/2022 .

(3) ومكتباتنا الجامعية في بيروت، تحديدًا، لا تبخل عن مدّ طلاب البحث بطلباتهم . وهذه وفّرت لي الكثير من المراجع من مخزونهم ـ وهو وفير ـ بكرم. أشكر في هذا المقام المديرة الحالية =

المتحدة، مثلًا، في تسعينيات القرن الماضي[4]. والأدبيات التي تناولته غطت مروحة واسعة من العناوين الفرعية تكفي قراءة مراجع كتاب واحد لرصد مدى اتساعها.

هذا ليس حال مكتبتنا العربية. هناك بعض الانشغال بـ «الأمومة»، لكن ليس في«عيشها»[5]. فالدراسات النسائية التي تناولت الموضوع في العقود الثلاثة الماضية، في مجتمعاتنا العربية، نُفِّذت تحت مظلّة التنمية البشرية وكان اهتمامها مركّزًا على صحة الأمهات الإنجابية، وتضمينات موقعها في التشريع والقضاء وفي صوغ السياسات حول وظائفها في الأسرة[6]. هذا، بينما انحسر الاهتمام[7] بـ«عيش الأمومة» إلى عدد قليل من الدراسات متفرقة في الزمان والمكان. والإبحار في فضاء الإنترنت، تُحيل محركات البحث فيه على عناوين في منصّات إعلامية تشير أحيانًا إلى ذلك العيْش. الجدير ذكره أن الغالب في الكلام عن عيش الأمومة ترجمات لنتائج أبحاث أجنبية تتناول أمورًا من ذلك العيْش مناقضة للخطاب الشائع عندنا حول الأمومة. من هذه العناوين مثلًا، «سعادة الزوجين دون أولاد تفوق سعادة الزوجين مع أولاد»، أو «أزواج نادمون لأنهم أنجبوا»، أو «الجانب المظلم للأمومة.. هل حب الأم الفطري مجرد خرافة؟» أو غير ذلك من عناوين يكاد التفكير فيها أن يكون من المحرّمات عندنا، فكيف الإعلان عنها[8].

هذه الورقة قراءة في كتب خمسة: ثلاثة منها ثبت بأبحاث ميدانية، واثنان بمثابة شهادتين شخصيتين. الكتب[9] هي التالية:

الشهادتان:

1 ـ إيمان مرسال، (2016)، **كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها.**

= للمعهد العربي للدراسات النسائية ـ الجامعة اللبنانية الأميركية، ميريام صفير، وموظفات وموظفي مكتبة يافث في الجامعة الأميركية في بيروت.

(4) يشهد ميدان دراسات الأمومة تراجعًا وفق ما تؤكده سميرة كوكش في مقالتها: (Kawkash, 2011: 969-1003).

(5) تميّز الباحثة/الشاعرة أدريان ريتش الرائدة في البحث في ميدان الأمومة بين «الأمومة» (motherhood- the institution) و«عيْش الأمومة» (ترجمة لمصطلح mothering). انظر: (Rich, 1976).

(6) الضرورات التي أوجبت ذلك الاهتمام، كان تنفيذ الأبحاث الخلفية التي نفذت بطلب من الحكومات العربية الذين كلّفوا الباحثات والباحثين في الأكاديميا أو خارجها لإجراء بحوث تعينهم في كتابة تقارير «سيداو» الرسمية وتحيينها تباعًا، والتي عالجت موضوع الأمومة بعدسة تنموية- جندرية.

(7) من علائم بداية الاهتمام بالموضوع، ترجمات لتحقيقات إعلامية يمكن رصدها في الفضاء الافتراضي وعلى وسائل الاتصال الاجتماعي. وأحيانًا تحقيقات أجراها إعلاميات وإعلاميون، باللغة العربية، على مواقع إعلامية افتراضية.

(8) وإن كنا نشهد نثرات لخطاب حول الأمومة ينحو لمنافسة الخطاب المهيمن. انظر، مثلًا (الحسين، 2022) وعلى تأنيب المعلّقين والمعلّقات الكاتبة على بوْحها.

(9) يجد القارئ التعريف الكامل لهذه الكتب في الملحق.

2 ـ يسرى مقدّم، (2020)، **صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر.**

الأبحاث الميدانية:

1 ـ الكاتب(ة)غير مذكور(ة) (2015)، **الأمومة.. المشروع الرائد للإنسانية**

2 ـ فادية حطيط ونهوند القادري (إعداد) (2019)، **اللاجئات السوريات في لبنان: تحديات الأمومة.**

3 ـ مجموعة من المتخصصين، (2017)، **أمهات سوريات** (شهادات).

الشهادات والدراسات هذه، ليست، بالطبع، شاملة لمجموع الدراسات العربية في الموضوع. هناك عناوين لم تُشمل في هذه الورقة ـ بالرغم من وقوعها في قلب الموضوع ـ لأن الغرض من هذه الورقة ليس الشمول، إنما الإشارة إلى أنماط من الاهتمام بموضوع عيش الأمومة، بيانًا لتعدد أشكال اختبارها، ونقضًا لأفكار تروّج لأمومة «كونية» معيارية، ثابتة الملامح، في خطاباتنا العامة[10].

في ما يلي، قراءة في مضامين النصوص المذكورة وفي ملحق هذه الورقة، مراجعة لكل واحد منها.

أولًا: معاني الأمومة

تقوم الأبحاث الثلاثة والشهادتان على خلفية لمعاني الأمومة. هي معانٍ متضمنة في النص، أو صريحة قولًا. ففي **الأمومة... المشروع الرائد للإنسانية** إملاء صريح لمعاني الأمومة ولموقعها في حيوات النساء والرجال، ويجري الحكم على عيش الأمهات لأمومتهن واتجاهاتهن حيالها (الأمهات في عينات البحث المتعددة في الدراسة الميدانية) بإزاء معنى ثابت ومتضمّن في جوهر الأمومة، اجتهد الباحث (المجهول الهوية) في وصفه، وفي محاولته إثبات مصدره الإلهي ـ الرباني، في جزء وافر الصفحات من الكتاب. ويمكن إدراج السعي النظري المساند لتلك المحاولة في الاتجاه السائد في الأدبيات الإسلامية للمواءمة بين النص القرآني والتوجهات الأخلاقية والسياسية العالمية كأن يبرهن، مثلًا، أن القرآن قد تكلّم عن حقوق الإنسان قبل إعلان «شرعة حقوق الإنسان» في أواسط القرن الماضي، وحين يجدّ رجال الدين لبيان المساواة بين النساء والرجال في نصوصهم الدينية. وفي هذه الحالة، إحالة واحدٍ من الخطابات النسوية الذي يرى في تضمينات الأمومة نزوعًا إلى السلم

(10) تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن حصول الباحث على مجتمع الدراسات الشامل عندنا، في مواضيع يرغب في تناولها، دونه عقبات سجّلها الباحثون في مواقع كثيرة. ينظر، مثلًا، في الحاج سليمان، عزّة وبيضون، عزّة (2022)، **نساء لبنان في القضاء اللبناني: تعزيز السائد وإهمال الهوامش**، (قيد النشر).

بمواجهة العدائية، والإنسانية بمواجهة التوحّش، مثلًا، إلى مقولات إلهية متضمّنة في خطاب الأديان الإبراهيمية.

في الثانية، **اللاجئات السوريات إلى لبنان: تحديات الأمومة**، استدعاءٌ لمعاني عيش الأمومة في تصوّرات واتجاهات ومشاعر وأحكام أمهات سوريات، وبحثٌ عن تباين محتمل بين تلك المعاني تبعًا للاختلاف الحاصل بين البيئة المستقرة قبل اللجوء إلى لبنان، والمستجدة بفعله. هذا الاستدعاء قوامه استبيان ومقابلات، فردية وجماعية، حُدِّدت أوجه الاستجابة لها بدقة؛ سواء عبر بنود في استبيان مقفلة احتمالات الاستجابة لبنوده، أو عبر أسئلة تولّد منها أسئلة تفصيلية تغطي احتمالات إجابات متوقّعة من واضعيها، على ما بان في الملاحق التي أثبتت صيغة الاستبيان والأسئلة المطروحة في المقابلات المعمقة لأمهات لاجئات.

أتساءل: هل كان سبْر عيش هؤلاء الأمهات (أو الـ«فعل الأمومي»، وفق ما أسمَتْه الباحثتان) سيثير مكامن من أمومتهن لم ترِد في الاستبيان، ولا في بروتوكول المقابلات، لو أن المقابلات المعمّقة أو الجماعية (المركزة) كانت حرّة، غير منبنية؟ وهل سمعت الباحثتان كل الأصوات في المجموعات المركزة؟ أم أن هيمنة الخطاب السائد جعل بعضهن صامتات عن قول مخالف لعيش الأخريات؟ هل كان التنبّه إلى بروز خطابات مختلفة ومتنافسة حول الأمومة، راهنًا، سيضيف معاني على ذلك العيش خارج دائرة توقّع الباحثتَين؟ هل كنا سنشهد، مع الباحثتين بروزًا لـ«ذات» أمومية تتجاوز التكوين الاجتماعي للأمومة تكونت في صدمة التهجير، أم أن التهجير نفسه كان، ربما، عاملًا في تخريب تكوين «ذواتٍ» لهؤلاء النساء.

في الثالثة، **أمهات سوريات (شهادات)**، تتواتر الثيمات نفسها في كل الشهادات، فيسع القارئ تبويب الأفكار الواردة فيها تحت عناوين معيّنة (وهو ما فعلته كاتبة هذه السطور- يُنظر الملحق). هكذا، فإن **معاني** الأمومة لأمهات فقدن واحدًا أو أكثر من أولادهن في الحروب السورية المتناسلة، إما استُخرجت، تحت عناوين وضَعَها منفِّذو الدراسة، من شهادات أطلقت، على عواهنها، إثر سؤال/ مثير وحيد، أو أن هؤلاء الأمهات كن يجبن عن أسئلة محددة سلفًا، وأعيدت كتابة إجاباتهن على هيئة شهادة. ويمكن، إذّاك، رسم صورة ذهنية، وشحنة انفعالية مرافقة، لعيش الأمهات الثكلات لفقدهن، وأشكال مداراته، وأسلوب تجاوز جروحه، وسبل التسامي بذلك الفقد وجعله «قربانًا» في سبيل «الوطن» ووحدة أبنائه كما توحّدت أمهاتهم في الأسى والخسارة.

إن تجميع هذه الشهادات في إطار قرار مجلس الأمن 1325[11] - وفق ما جاء في

(11) المادة 16 منه، مثلًا، يدعو الأمين العام إلى القيام بدراسة لأثر الصراع المسلح على المرأة والفتاة، ودور المرأة في بناء السلام، والأبعاد الجنسانية لعمليات السلام وحل الصراعات، ويدعوه أيضًا إلى أن يقدم إلى مجلس الأمن تقريرًا عن النتائج التي تنتهي إليها هذه الدراسة وإلى أن يتيح ذلك لجميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة؛ <https://www.un.org/womenwatch/ods/S-RES-1325%282000%29-A.pdf>

مقدمة الكتاب ـ أبرز نواحي من كلام الأمهات الثكلات ذي الصلة. وفي مقدمة الكتاب أيضًا أن المقابلة مع هؤلاء الأمهات لم تثبت كاملة. هل كانت الأجزاء غير المثبتة ستقدّم مادة إضافية لمعاني عيش هؤلاء الأمهات، أم أن الفقدان بات صفتها القاهرة الجاثمة على تفاصيل حيواتهن والفلتر لمجمل عيشها؟

على النقيض مما سبق، ينطلق بوح الكاتبتَين: مُقدَّم ومرسال، على هواه. وإذ تجعل مرسال (**كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها**) أرقامًا متسلسلة لعناوين فصولها الأربعة، ومنها محاضرتان، فإن مُقدَّم (**صباح الخامس والعشرين من ديسمبر**)لا تفعل، ليبدو كلُّ فصلٍ قائمًا بذاته، غير مرتبطٍ بما سبقه ولا بما تلاه.

مِرْسال تضبط، إذن، أبعادَ عيشِها لأمومتها في عناوين متتالية، متناظرة مع الزمن النفسي في مسار سعيها لـ«الالتئام»، راجية أن تكون الكتابة وسيلة لذلك. بينما تتخبّط مُقدَّم بين الماضي والحاضر، فتختلط أمومتها ببنوّتها، وبينهما ذاتها منفردة منفصلة عن الحالتين ومرتبطة بهما، في الوقت نفسه. وكما مرسال، تكتب مُقدَّم خوفًا من أن تصاب بالبكم وهي «فرّت» إلى الكتابة كي تتطهر من الأم، لكن أيضًا كي تجعل من سيرة الأم وسيلة للتقرّب منها. لكن الكتابة – كما أمومتها وعيشها ـ تنطوي على التجاذب: ترياق حرّاق تتجرّعه «رغبة بالشفاء» وإن كان «بعض الكتابة لا يشفي».

هكذا، تبدو معاني الأمومة مستقرة على «حال ما» في ذهن الباحثات والباحثين / المؤلفات والمؤلفين، واستطرادًا في أذهان الأمهات – عيّنات أبحاثهن. وأبعاد عيشهن متمحورة حول أدوارهن الاجتماعية، أساسًا، والبيئة المحيطة بعيشهن، الطارئة (سورية ـ حالتي اللجوء والثُكْل) أو المستقرة (البحرين). هناك إشارات إلى مراجعة لهذه المعاني، لكن من جانب الباحثات والباحثين، وبتصميم أبحاثهن وفي حدود أسئلتهن.

بخلاف ذلك، جعلتنا الكاتبتان مرسال ومُقدَّم شهودًا على صراع يعتمل في صدريهما باعثًا على حيرة حول معاني عيش أمومتهما، ومشاعر يختلط فيها الكثير من الحب والنبذ والذنب، رافقت ذلك الصراع وجعلته فوق الاحتمال. هو صراع بين وجهتَين تُدلي كلٌّ منهما بحجتها، ومحصّلته حيرة ولايَقين.

ثانيًا: التعلق والتماهي

تنطوي الأمومة، في منطلقات الباحثين على علاقة مع **آخر** واقعي. التعلّق خاصية للعلاقة المتبادلة بين الأم وولدها ومتضمّن في مفردة الأم وأبسط معانيها الشائعة. في النصوص الخمسة يسعنا التمييز بين شكلين من التعلّق:

في استجابات الأمهات من عيّنات البحوث الثلاثة نجد تعلّقًا ذا منحى مسؤول ويستهلك، وفق استنتاج الباحثين، الكثير من طاقة الأمهات ووقتهن وانشغالهن العاطفي والسلوكي والمادي، لكنه، أيضًا، تعبير عن اكتمال الذات وتقديرها الاجتماعي والعلائقي. هذه المسؤولية تجاوزت، في منطلقات الباحثين في نص **الأمومة: المشروع الرائد للإنسانية**، الأمومة في

عيشها الخاص إلى صيغة مثالية قوامها التعلّق بالوطن، والتسامي بالأمومة إلى المسؤولية تجاه الأمة؛ إلا أن هذه لم تجد تعبيراتها الواقعية لدى المبحوثات اللواتي أبدَيْن رغبة في إضافة هذه الصيغة إلى المعاني التي يستدخلنها حولها.

في فقد الأمان بالتهجير، مثلًا، تتعزّز أشكال التعلق المسؤول على حساب أخرى، ومعيار ذلك ضرورات «الآن وهنا» مقابل، ضرورات أقل راهنية؛ هكذا أصبح الخوف على أمان الأولاد وعلى صحتهم في قمة الانشغالات، بينما تراجعت أهمية مستقبلهم، كأن يصبح تعليمهم، مثلًا، متراجعة أهميته في هواجس الأمهات وخاضعة لأولوياتهنّ المذكورة.

إلى ذلك، فإن فقدان الولد، حدث صاعق. في روايات الأمهات الثاكلات، مثلًا، يصل التعلّق بأولادهن الذين فارقتهم الحياة حدّ التماهي. ويأخذ ذلك التماهي أشكالًا مختلفة، فتتبنّى أمٌّ القضية التي قتل الابن/ الإبنة لأجلها، أو تعلن أم أخرى امّحاء ذاتها من الوجود إلى حين الالتحاق به أو بها. ومن بين الأمهات السوريات، قلّة وجدن موضوعًا للتعلّق بديلًا من فقيدها.

التعلق بالأولاد والتماهي بهم صفتان للأمومة المرغوبة اجتماعيًا، وتعلن أمهات الأبحاث الثلاثة عنهما دون تردد. لكن في بوح الأُمَّيْن في شهادتيهما، نجد أن التعلّق مثلًا مخالف لإرادتهما الواعية، ومسؤوليته ليست الانشغال الحصري بالنسبة إليهما. وذلك لأنهما منهمكتان بأمور لا يُسمح لها، وفق المعتقدات السائدة (والمتبناة من جانبهما بتجاذب)، إلا أن تبقى أدنى أهمية من الانشغال بالأولاد فلا تنافس المسؤولية عنهم. هما مهتمتان، سلوكًا واتجاهًا، بأمور شتّى يمكن إدراجها تحت عنوان «تحقيق الذات» أو حتى تألّقها، انسجامًا مع وعود الأزمنة الراهنة وتوقعاتها. لكن مشاعرهما كانت لهما بالمرصاد: مشاعر الذنب والتقصير جرّاء التمرّد على السائد المتوقّع من الأمومة، يعزّزها موقف الآخرين، سواء كان الآخر الأبناء ولومهم الصامت أو المجتمع ولومه الصريح. هذه الأمومة المتوقعة معروفة من مُقدَّم عبر أمها المثال الصافي المتمثل بـ «ثقافة القفص» في مجتمعاتنا البطريركية؛ في حين تفتقد مرسال مثال الأمومة مرتين: فأمها غائبة بالموت وهي ولدت طفلها الأول في الغربة عن «وطنها الأم»، لتفتقد المرجعية – الاجتماعية لأمومتها، إضافة إلى فقد والدتها ـ أي المرجع المفترض «طبيعيًا» لأمومة «سوية».

ثالثًا: وطأة السياق أو خفوته

الباحثتان حطيط والقادري أفردتا للسياق المحيط بالأمهات اللاجئات إلى لبنان صفحات كثيرة من كتابهما، وخصصتا فصلَين كاملَين منه تناول أحدهما سياقات الأمومة والثاني سياق التهجير بالمقارنة مع ما قبله. وفي بنود الاستبيان كما في صيغ أسئلة المقابلات هناك استدعاءات للسياق في أبعاده: الزمان والمكان والوضعيات والسياسة والثقافة والمحيط الإنساني القريب والأبعد. الانشغال بالسياق وأثره في «فعل الأمومة» يبدو للقارئ منسجمًا مع الإعلان الصريح في النص عن أهمية السياق في دراسة تحديات الأمومة لدى أمهات تعرضن لرضّة التهجير، ومن تضمينات منطلقات الدراسة التي ترى الأمومة تكوينًا

اجتماعيًا- تاريخيًا، وأن تجلياتها دالّة على تقلبات سياقاتها. في التهجير، تبيّن الدراسة، تكون الأمومة ملجأ الأمهات العاطفي وموقعًا من مواقع اضطراب عيشهن، في الوقت نفسه.

في كتاب **أمهات سوريات**، تتوارى اتجاهات معدّي الكتاب (مجموعة من المتخصصين) خلف خطاب الأمم المتحدة ولهجتها «الحيادية». وباستثناء مناصرة السلم والتماهي مع صرخة الأمهات أن «أوقفوا الحرب»، لا يحوي النص خلفية سياسية أو أمنية صريحة، ولا وصفًا للسياق الذي جعل هؤلاء الأمهات ثكالى. هكذا، يعطي معدّو الكتاب «الكلام للأمهات» لأن الأمهات يستحققن ذلك، ليصبح فَقْد الولد مسيطرًا على مسار السرد، ومن هذا السرد يتعرّف القارئ على الظروف والأحداث التي أدّت إلى مقتل الابن (أو البنت) وتتضّح معالم متفرّقة من السياق، والسياسي من بينها، الذي أحاط بالأسرة وبالأمهات، ضمنًا، وأعاد تكوين عيشهن بمجمله.

في **الأمومة: المشروع الرائد ...**، غياب تام للسياق الاجتماعي؛ وباستثناء اسم الناشر، يمكن أن يكون التقديم النظري قد صيغ قاعدةً للبحث في أي مجتمع يتكلّم اللغة العربية ويعتنق واحدًا من الديانات الإبراهيمية. صحيح أن الدراسة الميدانية نُفِّذت في مملكة البحرين، إلا أن النص لا يقدّم ما يفيد أن الأم البحرينية مؤهّلة لأن تكون أمومتُها حاملةً لـ «المشروع الرائد للإنسانية». نشير إلى أن التقديم النظري المستفيض حول قوى الأمومة الكامنة الموهوبة من الله، والمحرّفة عن جوهر وظيفتها الربانية من جانب الرجل والمسخّرة لغاياته الدنيوية، كان محمولًا على حجج منطقية ولغوية مسوّغة مسلّماتها في بيئة فكرية بعينها. فإذا حسبنا «البيئة الفكرية» سياقًا، فإن الدراسة الميدانية تكون، قد نفّذت، كما سابقاتها في هذه الورقة، في سياق.

في الشهادتين، كان السياق مرافقًا للبوْح الشخصي، بل بدا محدِّدًا له في مواقع غير قليلة. ثورات الستينيات ووعودها لم تكن بلا تأثير في المعنى والقيمة اللتين أسبغتا على أمومة مُقدَّم، والخيبات التي مُني بها جيل هذه الثورات هي التي حرّكت مراجعتها وأحدثت ذلك التجاذب المنهك في وجدانها.

ومِرسال أيضًا، لم تختبر أمومتها منفردة. بغياب التماهي بأمها، (أي والدتها المتوفاة وهي ما زالت طفلة)، وهو ما افترضته ضروريًا لعيشها أمومة سوية، لجأت إلى العلم وخبرائه ومستشاريه لمداراة قلقها الأمومي وتهدئة مشاعرها المتنقّلة بين حقها في الوجود كفرد ذي رغبات وحاجات، وبين مشاعر الذنب تجاه وليدها. وكأن مشاعر الذنب المنبثقة تلقائيًا لدى الأمهات المعاصرات كلهن (وفق ما تفيدنا به الدراسات) لا تكفي، انبرى المحيط الإنساني (المدرسة، القضاء، الطب النفسي) لإلقاء اللوم عليها واتهامها بالتقصير!

رابعًا: الأب الغائب

في **الأمومة: المشروع الرائد ...**، الأب غائب تمامًا، وينوب عنه الرجل بعامة الذي عملت ذكوريته المتمحورة حول رغباته على «التخريب» على المشروع المذكور بتحويره، بما يملك من

سلطان، عن غاياته الإلهية، كما سبق القول. في شهادات **أمهات سوريات**، يظهر الأب مواسيًا للأم الثكلى، في حالات نادرة، لكن آلام الفقد تبدو في كلامهن مركزة ومتمركزة عليهن وكأنهن يفتدين، بذلك، أفراد الأسرة كلها، الأب ضمنًا، أو كأن الفقيد، حامل اسم الأب في حياته، بات في موته «من الأم»، و«إلى الأم» يعود.

على النقيض مما بان في البحثَين السابقَين، الأب حاضر في عيش **اللاجئات السوريات إلى لبنان...** ووجوده ضرورة يمليها غياب البيئة الحاضنة للأمومة وتدبير عيشها في الهجرة. ففي حين كانت أسرة الأب وأسرة الأم محدِّدين لأحوال الأمومة المادية والمعنوية، فإن غيابهما أحدث فراغًا كان على الأب ملء بعضه.

في الشهادتين تكثير لغياب الأب، فالثنائي أم- طفل وحدة مغلقة على باقي أفراد الأسرة، الأب ضمنًا. اللافت أن هذا الغياب ليس ذا صلة بكون العلاقة بين الأبوين طيّبة أو سيئة. فإذا كانت أمومة مقدّم الأولى حدثت في غياب الأب بفعل الطلاق أو المسار إليه، فإن قارئ مرسال لا يقع في نصها على ما يشي باضطراب علائقي بين الأم والأب. في بوح الأمَّين، مُقدّم ومرسال، عن عيشهما الأمومي تُستثنى الأبوة من المؤثِّرات في ذلك العيش.

خامسًا: المتن وهوامشه

النصوص الخمسة، تفترق بحسب نوعها. الأبحاث من جهتها تتناول أمومة المتن، وتعبيراتها مستقرّة على ما هو مألوف ومرغوب في الثقافة الاجتماعية البطريركية التي ترى إلى الأمومة وظيفة بيولوجية غريزية ذات تعبيرات اجتماعية- ثقافية وتتمثل بأدوار وسمات ملتحقة بها، وتروّج لكونها ثابتة عبر الأمكنة والأزمنة. غير أن هذه الأبحاث لا تكتفي بأمومة المتن. ففي كل واحدة من هذه الأبحاث الثلاثة، يجد القارئ بعدًا في منطلقات البحث «يرغب» منفِّذوه في اشتمال الأمومة عليه، وهو يتجاوز ذلك المتن وتعبيراته:

في **الأمومة... المشروع...**، يرغب الباحث المجهول في رصد مكوّن ربّاني في أمومة النساء اللواتي قابلهن، لكنه يمنى بخذلان غيابه تمامًا؛ فالأمهات اللواتي قابلهن- وهن من النخبة ـ منهمكات في أدوارهن الاجتماعية الباعثة فيهن مشاعر دنيوية ومحصورة في أبنائهن، فلا يتجاوز اهتمامهن رفاههم، إلا في ما ندر وبحثٍ من الباحث نفسه.

في تصميم بحث **اللاجئات السوريات إلى لبنان:...**، تضيف الباحثتان بعدًا في مكوّنات الأمومة هو تصوّر الأم لذاتها كفرد منفرد؛ وذلك في محاولة لرصد التغيّرات التي أحدثها التهجير في أفكار هؤلاء الأمهات حول ذواتهن، وأمومتهن واتجاهاتها ومشاعرهن نحوها، ضمنًا. وفي نتائجهن ملامح من ذلك التغيّر يشي بتكوّن شخصية تتلمّس مسالك فرادتها.

أما في **أمهات سوريات...**، فإن خلاصة كل الشهادات تشي باهتمام ينحو للتسامي عن جروح الثُكْل وحمل هموم الوطن الذي استشهد أولادُهم فداء له، وانشغال بإحقاق العدالة لأجل الوصول إلى الغفران. وكما ذكرنا سابقًا، فإن خلوص كل الأمهات إلى التسامي المذكور يشي بصبْغ أمومة الأمهات، من جانب الباحثين، باتجاهات مرغوبة في سياق حل النزاعات

الحربية، هي السعي نحو السلام والغفران، وكون الأمهات الثاكلات اللواتي ذقن لوعة الفقد، لديهن استعدادات لتجنيب غيرهن من الأمهات مرارته.

أي إن الباحثين في الدراسات الثلاث، وبالرغم من مقارباتهم البحثية المعنية بأمومة المتن، يفترضون للأمومة أبعادًا لم تلحظها أيديولوجيًا الأمومة السائدة في المجتمعات العربية. إلى ذلك، فإن البحث الذي تناول الأم المهاجرة، مثلًا، تعبيرٌ صريح عن فكرة بدأت تتبلور تدريجيًا مع انطلاق حركة تحرر المرأة في الستينيات والتي جهدت لإثبات كون الأمومة تكوينًا اجتماعيًا اتخذ صورًا متعددة ومتنافرة عبر التاريخ وعبر المجتمعات والطبقات والإثنيات وتتغيّر تبعًا للسياق الأمني والسياسي والاقتصادي إلى ما هنالك من متغيّرات. والأمومة، تبعًا لما تجمّع من شهادات أدلت بها الأمهات السوريات الثاكلات، يمكن تخويلهن أداء دور سياسي في إعادة البناء ما بعد الحرب، لكن في سياق يعترف بخبراتهن المكتسبة في إعادة بناء البلد، أو يسع الأمهات، في حال كنّ واعيات لدورهن «الرائد» أن يُعِدْن بناء الإنسان حين يُعترف بقدراتهن الكامنة.

لكن ماذا عن الشهادتين؟

إذا كان الباحثون قد اجتهدوا في دراساتهم لإبراز بعض ما يرونه موجودًا كامنًا، لكن مغيّبًا في الكلام المتداول حول الأمومة، فإن الكاتبتَين مرسال ومُقدّم غامرتا بنقض مسلّمات ذلك الكلام، ووضعتا ذاتيهما على هامشه، لكونهما تدركانها خارج سرب الأمهات، لأن ما اختبرتاه لم يكن يشبه ما كان ينبغي عليهما اختباره. و«ما ينبغي» عليهما اختباره ماثل أمامهما، إن في والدة مُقدّم الصامتة المتلقية والمضحية بدون شروط، أو في كتب كثيرة أصدرها أطباء وخبراء في الأمومة يُمْلون على النساء المعاصرات الفاقدات، بخيارهن أو قسرًا، لمرجع صريح ينوب عن المرجع «الطبيعي» ـ أي أمهاتهن ـ تمهيدًا لسبيل أمومة راضية مطمئنة، مِرسال مثلًا.

... لمزيد من البحث والبوح

في مراجعة لنصوص عربية تناولت «عيْش الأمومة» وفق ما اختبرته نساء – أمهات، عرَض لنا باحثات وباحثون تفاصيل ذلك العيْش بمقاربات بحثية مختلفة. في الحالات كلها، أُنتجت معرفة تصطبغ ـ كما هي الحال دائمًا ـ بمنطلقات الباحث وخلفياته وذات صلة وثيقة بالطرائق التي توسّلها في بحثه. وحين بادرت كاتبات إلى بوحٍ فريد في مكتبتنا العربية حول ذلك العيْش، أضيئت مكامن من الأمومة مسكوت عنها لأنّها صادمة للشائع المتمترس خلف أفكار واتجاهات وانفعالات حامية لثبات صحتها.

القراءة في هذه النصوص الخمسة، بيان على التنوّع في عيْش الأمومة وعلى بطلان بداهة ثبات معانيها وشيوع تجلياتها. ما نحتاج إليه هو المزيد من هذه الأبحاث، والمزيد من ذلك البوْح، يُحدِث تراكمًا ويعمل على صوغ معرفة قوامها اختبارات الأمهات الفعلية في عيْش أمومتهن في مجتمعاتنا. إن إعطاء القول للأمهات لوصف عيْشهن، سواءٌ عبر وسائل وسيطة تستدعي أبعادًا يعيّنها الباحث لذلك العيْش، أو بالبوْح الحر عن اختبار وجداني

خاص، ليس ترفًا، بل يُمليه «قلق في الأمومة». هذا القلق من بعض «روح العصر» الباعثة على النظر بريبة إلى كل الثوابت والمسلّمات ومحاولة تفكيكها والبحث عن دوافع صوغها على وجهها السائد. ولا نفشي سرًا إذا قلنا إن إعطاء الكلام للأمهات، كل الأمهات، والمهمّشات[12] منهن بخاصة، كفيل بمراجعة الأساطير التي صاغتها المنظومة الجندرية الأبوية حول الأمومة، وأملت قواعدها على الأمهات، ويسهم في خلخلة استقرار هذه الأساطير في وجدان الأمهات، والتخفيف من سطوتها غير الودودة على عيْشهن.

الملحق: مراجعة النصوص الخمسة

أولًا: الدراسات

1 ـ الكاتب(ة) غير مذكور(ة) (2015)، **الأمومة.. المشروع الرائد للإنسانية**، جمعية البحرين النسائية للتنمية الإنسانية، مملكة البحرين. /https://bahrainws.orgالبحرين-النسائية-تطلق-بحث-نوعي

هذا كتاب نافٍ لـ«عيْش الأمومة». فهو إذ يستدعي، عبر دراسة ميدانية، تعبيرات النساء واتجاهاتهن نحو الأمومة، يضيق كاتبه (أو كاتبته) بتعبيراتهن حول عيْشها. وحجته إلى ذلك أن هذه التعبيرات لا ترتقي إلى ما عمل كاتبه على تبيانه، في 134 صفحة من أصل 200، من أن «الأمومة أسمى من ذلك العيْش». وقد أطلق هذا الحكم بإزاء صورة «أمومة» افتراضية استنتج ملامحها من تأويل لتصريحات جاءت في مراجع دينية، إسلامية أساسًا وليس حصرًا، ولغوية بدرجة موازية. هذه الأخيرة – وهي الأهم ـ قائمة على المماثلة بين لفظ «الأمّ» وبين صفة «الأمّة» التي جاءت في القرآن في نعت النبي إبراهيم ـ مؤسس الأديان السماوية الثلاثة. المقارنة بين عيْش الأمومة للنساء المشاركات في الدراسة الميدانية، وبين الأمومة المفترضة التي استغرق وصف أركانها الجزء الأكبر من الكتاب، وبرهان القصد الإلهي من خلقها، أثمر حكمًا سلبيًا على تعريف هؤلاء النساء لـ«الأمومة». وهو حكم كتب بلهجة شبه «تقريعية» لحُسبانهن غير مدركات للمهمّة الجلل التي أوكلها الله لهن. وهذه المهمّة تتمثّل بتفعيل أمومتهن (الأم ـ الأمة)، لا في إطار عوائلهن فحسب، إنما على كل الصعد وفي المجالات العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية إلخ... تمامًا كما كانت مهمّة النبي إبراهيم المخوّلة إليه، ربانيًا، بفعل السمات الرفيعة التي يتحلّى بها. وهي سمات، وبحسب نتائج الكاتب للمباحث النظرية التي أثبتها، لا تختلف عن سمات الأمومة

(12) في الأدبيات الأنكلو ـ ساكسونية، مثلًا، معالجات لأنماط من الأمومة المهمّشة. وهذه تشتمل على الأمهات العازبات أساسًا، إن بفعل غياب الأب بالانفصال أو غير ذلك، أمهات مراهقات منفردات، أمهات يرعين أولادًا مع شريكات مثليات، أمهات لأولاد ذوي حاجات خاصة، أمهات لأولاد مرضى نفسيًا أو ذوي عاهات دائمة، أمهات من العرق غير الأبيض، أمهات فقيرات إلى ما هنالك من فئات تطلب تدخل المجتمع/ الدولة لأجل البقاء.

التي أسبغها الخالق، بالقوة (Potentially)، على الأم. هذه الأمومة قَمَعَ الرجال تعبيراتها في المجالات الخارج- أسرية، حين سجنوا النساء في دائرة «الأنوثة» / الموضوع الجنسي، وما يتضمن ذلك من تمييز ضدهن وإقصائهن عن المجالات العامّة واستبعاد إسهامهن، تاليًا، في تطوير معارفهن وتنمية مجتمعاتهن. ولا يعفي الكاتب النساء من مسؤوليتهن عن أوضاعهن، فهن قبلن بما «كتبه» الرجال لهن، وأحجمن عن فرض رؤيتهن الخاصة لـ«الأمومة».

يهدف هذا الكتاب إلى «الكشف عن القوى والقدرات الكامنة» لدى المرأة (الأم) وبيان أدوارها في بناء الأمم. وفرضيته الرئيسية أن المرأة غير واعية لمصدر قواها الداخلية الكامنة ولا لـ«صلة الأم بمفهوم الأمة عامة وبأمة إبراهيم (ع) خاصة». في فصول الكتاب الأولى استعراض للقدرات المذكورة . وفي سعي الكاتب لإثبات فرضيته، يتوسل أدوات بحثية متعددة شملت الاستبيان والمقابلات الفردية والجماعية، والاستفتاءات والملاحظة وغيرها أيضًا، طبقها على عينات من النساء المتزوجات والعاملات في مهن خارج- منزلية.

يستدعي البحث الميداني إجابات النساء حول اتجاهاتهن حيال الأمومة، وأفكارهن حول ماهيتها. ونتائجه تشير إلى أن المستجيبات يجدن صعوبة في التعبير عن الأمومة،-وهو إذ يتوصّل لإثبات فرضيته يعبرّ، بالرغم من ذلك، عن خيبته منها: «هناك **كارثة كبيرة** هي أن المرأة هُجِّرت من أمومتها مما تسبب في عدم مفهوم الأمومة في معانيه الذاتية التكوينية لدى المرأة- الأم نفسها ...» وأن الخلط والتناقض وقلب مفهوم الأمومة ... «ناجم عن العجز عن الفصل بين الصفات الروحية والأخلاقية للأمومة» وبين أدوارها التربوية، وطغيان مفهوم ما يدعى بـ«الأمومة الأولية» وتداعياتها (الإنجابية) على المرأة- الأم: فإذا كانت المرأة تدرك أن الأمومة «تحتوي على صفات الخير والمحبة والعطاء والتضحية والسلام»، فهي توظفها في أبنائها فقط وهم، وفق تصورها، ملكية خاصة وهي المسؤولة الحصرية عن تنشئتهم؛ وذلك بدل أن تكون أمًا لأبناء الوطن كله، كما «أرادها الله لها أن تكون». والمرأة ترى إلى الأمومة واقعة تحت مشاعر وأحاسيس ضعيفة لا يمكنها التحكم فيها، وفي أن الرحمة والمحبة التي تتصف بها تغيّب الصفات «الملكوتية الإدارية». أخيرًا يرى الكاتب أن هناك في تصوّر النساء (المستجيبات) خلطًا بين الأنوثة «التي هي من صفات الجسد، وبين صفات الأمومة التي هي من صفات الروح... القائمة على القيم والأخلاق والفضائل ذات أساسات قوية وثابتة ومتصلة بنظام متكامل (متدرّج) من الخالق إلى الكون إلى الأنبياء إلى الأم».

المثير للاهتمام أن الكاتب أثبت في ملاحق الكتاب صيغ الاستبيانات المعتمدة، والأسئلة التي طرحت في المقابلات الفردية والجماعية، إضافة إلى نتائجها في صيغها الأولى. ومن ذلك تقييم الاستبيانات التي تناولت وصف الأمومة والأم، فكان أن أبدى هؤلاء تقديرهن لتعرفهن إلى معانٍ لـ«الامومة» لم يكنّ مدركات لها سابقًا. على أن ما أثار خيبة الكاتب واصفًا إياه بـ«الكارثة» كان تعريفهن الأمومة التي جاءت تزخر بالمفردات ذات الصلة بأدوارها الحضنية والتربوية والعاطفية المعروفة للأولاد وحسبانها غريزة حيوانية وارتباطها، إذًا، بأولاد «من الصلب» على نحو أناني، يعلي مصالحهم على حساب مصالح الآخرين. أي

أن الكاتب لم يجد في كلام الأمهات – أفراد عيناته ـ وعيًا لما أسماه «جوهر المشروع الرائد للإنسانية» الذي أراده الله للمرأة. فجاءت توصياته هنا بالذات: توعية المرأة[13] لاستيعاب الدور المرسوم لها والذي غاب عنها في الظروف التي تؤطر عيْشها الراهن.

2 ـ فادية حطيط ونهوند القادري (إعداد)(2019)، **اللاجئات السوريات في لبنان: تحديات الأمومة**، المعهد الدولي للتربية IIE، بيروت .ttps://www.academia.edu/41467115

يهدف هذا الكتاب إلى رصد تحوّلات «فعل الأمومة[14]» لدى الأمهات السوريات اللاجئات إلى لبنان تفاديًا لأهوال العنف الذي رافق الحروب التي اندلعت شراراتها في عام 2011. هذه التحوّلات يُنظر إليها بالمقارنة بين أحوال هؤلاء الأمهات في حاضر اللجوء وبين أحوالهن في الماضي المستقر. وقد استدعيت لتلك المقارنة السياقات المحيطة بمعيش هؤلاء النساء لأمومتهن مشتملة على الحروب المشتعلة في منطقتنا العربية وما نتج منها من تهجير ونزوح ونفي قسري عمّق الفقر وأحدث تهميشًا لأعداد كبيرة من الناس[15]. إضافة إلى ذلك، عملت الكاتبتان على موضعة بحثهما في مسار الدراسات حول «الأمومة» و«فعل الأمومة» والثيمات التي عالجتها هذه الدراسات ومواضيعها ومقارباتها المتنوّعة مستندة في ذلك إلى النتاج المعرفي لباحثات وباحثين، غربيين أساسًا، تناولوا الموضوع مباشرة أو هم أسهموا في إغناء فهمه وسبر طياته المتعددة[16].

في وصف السياقات المحيطة بفعل الأمومة، وفي تعيين الأطر التي تسوّر الأمومة، يبدو الكلام عن «الأمومة في السياق العربي» الأكثر راهنية لفهم تحوّلات الأمومة والتحديات التي تواجهها. هو السياق المنفعل بالعولمة وتضميناتها، وأهمها التعميم التكنولوجي والاتصالي المؤثّر في البنى المجتمعية، الأسرة والأمومة ضمنًا. ولا يفوت الباحثتان أن أحوال الأسرة العربية ليست واحدة وأنها دالة للمتغيّرات الكثيرة التي تكتنفها، لكن يبقى أن ما يخترق أشكالها وتنوعاتها جميعًا واقع حال مشترك هو طابعها البطريركي الذي يجد تعبيراته المميّزة في «الثقافة الدينية الإسلامية المتجذرة في الوجدان العربي» التي تولي الأسرة الدور الحرِج في بث أيديولوجياته المعززة للفصل بين الجنسين وبين الأجيال، عاملة على «حبس» الأم في أدوارها، مُسبغة عليها صفات التبجيل ووجوب التكريم، من جهة، وحسبانها طبيعية ملحقة ببيولوجيتها، من جهة ثانية.

إذ تهدف هذه الدراسة للبحث في التحديات التي تواجه الأم السورية اللاجئة في ممارستها لـ«فعل الأمومة»، تفرد الباحثتان فصلًا خاصًا لـ«انعكاسات التهجير والظروف الصعبة على وضع المرأة السورية»، بعامة؛ وذلك، لمزيد من إبراز ما تجدانه ضرورة في

(13) هو تمامًا ما تفعله المنظمة الراعية للدراسة. وجلسات التوعية، وصفها ومضمونها منشور على موقعها الإلكتروني.

(14) تميّز الباحثتان في عرضهما بين مفهومَي «الأمومة» و«فعل الأمومة».

(15) وغيرها من عناوين استغرق عرضها الفصل الثاني من الجزء الأول.

(16) وهذا استغرق عرضه الفصل الأول من الجزء الأول من الكتاب.

تناول موضوع الأمومة التي «لا يمكن تناولها من منظور مجتزأ ... ولا اختصارها بالإنجاب، وإنما يجدر النظر إليها بتقاطعاتها الظرفية والمكانية وبامتداداتها قبل الإنجاب وبعده وإلى الأمهات ككيانات مكتملة، قادرة إذا أرادت، على تنويع خياراتها وترتيب أولوياتها وعلى الخروج من أسر الخضوع لصورة الأم المثالية... أو النموذجية». في هذا الفصل عرض تفصيلي لأوضاع المرأة السورية في المجالات التي دأبت الدول الموقّعة على اتفاقية سيداو، كما هي حال الجمهورية السورية، على توفير معلومات حولها والتي يجري تعميمها في تقارير دورية متوافرة على شبكة الإنترنت. وهي ترسم لوحة إجمالية عن أوضاع المرأة السورية في مجالات العلم والصحة والعمل والقانون ومواقع صنع القرار. يضاف إلى ذلك، دراسات تناولت أوضاع النساء السوريات في حالة اللجوء إلى بلدان مجاورة لسورية، ولبنان من بينها. وفيها عرض أكثر تركزًا على أنماط المشاكل التي تعانيها اللاجئات اشتملت على الاجتماعية (الأمن والأمان، ظروف السكن، إعالة الأسرة، التعرض للعنف الأسري والتزويج المبكر ضمنًا، التعرض للاستغلال)، المشاكل الصحية (العامة والإنجابية والنفسية)، إضافة إلى المشاكل التربوية، والقانونية.

على هذه القاعدة الوفيرة في معلوماتها، والواسعة الإحاطة بالسياقات الرئيسية التي تكتنف الأمومة السورية اللاجئة، يستعرض الكتاب، في قسم خاص، «الواقع الميداني للأمهات السوريات اللاجئات» في لبنان في دراسة نفّذتها الباحثتان؛ وذلك للإجابة عن سؤال رئيسي: كيف عاشت هؤلاء الأمهات تجربة اللجوء؟ ترجم عملانيًا في أسئلة تفصيلية تناولت المعاني والقيم التي ألحقت بأدوارهن الاجتماعية وبتصوراتهن لذواتهن وعلاقاتهن ولهوياتهن، وتأثيرات اللجوء على دائرة الذات اتساعًا أو تقليصًا.

وتتوسّل الدراسة أدواتٍ بحثية ثلاثًا: «الاستمارة، المقابلة المعمّقة ومجموعة التركيز». وتقدّم الدراسة في فصل، تطلق عليه «مدخل منهجي»، مواصفات ديمغرافية للعيّنات المختلفة التي طُبقت عليها الوسائل المذكورة. هذه المواصفات بيّنت أن الأمّهات في العيّنات الثلاث يتشابهن في الانتماءات الطبقية والاجتماعية، وفي نوعية التعليم، وفي الفئة العمرية، الأمر الذي يسمح للباحث بالقيام باستنتاجات على قدْر كبير من الصدقية للفئة المدروسة.

تستنطق الوسائل المستخدمة في هذه الدراسة «فعل الأمومة» قبل التهجير وبعده، في أبعاد ثلاثة مُختارة: (1) عبر الجسد ووظائفه (الحمل والولادة، أساسًا)؛ وتأثيرها في الأم وفي الآخرين المهمّين؛ و(2) من باب تربية الأطفال وسياساتها؛ (3) ولما كانت الأمومة «هوية»، وفق ما تراه الباحثتان، كان استقصاء التحوّلات في «أنا» الأمهات، بعدًا ثالثًا من «فعل الأمومة». البعد الثالث تضمّن عناوين تبدو للقارئ، بخلاف البعدَين الأولَين، قد أثارتها الأسئلة التفصيلية في المقابلات الفردية أو الجماعية والتي لم «تفرض» على المستجيبات إجابات مقنّنة، بل فسح لهن في المجال للإجابة عنها بتعبيراتهن الخاصة. وتحت عنوان «المشاعر المتضاربة جرّاء التهجير»، تثبت الدراسة بوح الأمهات عن عيْشهن كأمهات وكنساء وكأفراد تعرّضن لاهتزاز في حيواتهن السابقة التي كانت مستقرة وباعثة على الرضا، وموضوعًا للرغبة في الاستعادة.

الفصل الأخير بمثابة تلخيص للنتائج المحصلة من الدراسة الميدانية. ومن أهم هذه النتائج التباين في وصف االمستجيبات للأمومة قبل التهجير وبعده. فهي كانت قبل التهجير سلوكًا عاديا وطبيعيًا، لا موضوعًا للتأمل ولا لاتخاذ القرار، بل أقرب إلى أن تكون فعلاً اجتماعيًا بعناية العائلة الممتدة. وتشير النتائج إلى أن الأمومة خسرت بعد التهجير، وبفعل الاضطراب الذي أعاد ترتيب هرمية العلاقات كلها، بعضًا من تلقائيتها، وتكثّفت فيها مشاعر وسلوكات كانت من بعض علائمها الحماية المفرطة للأولاد بنتيجة مشاعر من الخوف من الخارج «الملوّث»، سواء كان هذا التلوّث ماديًا بالأمراض المعدية، أو كان معنويًا قوامه الأفكار والسلوكات الخطرة. وتراجعت هيبة الرجل بتراجع بعضًا من مكونات سلطته، الأمر الذي جعل الزوجة/الأم تختبر ثقة وقوة واستقلالية لم تكن مدركة لها من قبل. ولم تسلم المدرسة، ذات الدوام الليلي، من التوجس، فترددت الأمهات في إرسال أولادهن إليها، وكان أن جاء التعليم بدرجة متأخرة عن أمنهم المفتقد في سلّم أولوياتهن، ومؤجل تحقيقه إلى حين العودة إلى الوطن.

يبقى أن «صدمة التهجير» قد أخرجت هؤلاء الأمهات من مجالهن المغلق على مجريات الخارج، فأقلق طمأنينتهن وحفّز حواسهن ومشاعرهن، الأمر الذي دفع بهن إلى «تلمّس معانٍ جديدة لأمومتهن». صحيح أنهن احتفظن بقيمهن التي تربَّين عليها بما يطول إلى موقعهن في الأسرة، واتجاهاتهن نحو الإنجاب ولكونه «وسيلتهن الوحيدة لتحقيق ذواتهن الأنثوية ولصيانة حيواتهن الزوجية»، إلا أنهن أصبحن، وفق ما صرّحن به، أكثر وعيًا لماضيهن وحاضرهن وتأثيره في مستقبلهن. ويتضمن ذلك ما يمكن تسميته بـ«فعل التأمّل» في الأمومة، خاصة بالنسبة إلى وعود الأمومة المبكرة (وأكثر هؤلاء تزوجن باكرًا) السالبة لطفولة البنات وتعليمهن، ولتأثيرها في واقع التهجير، وتأثرها به. وفي الخلاصة أن أمومة النساء المجيبات «قد تغيرت على مستوى الممارسات والمواقف وقطعت شوطًا سابقة للمفهوم الأبوي عن الأمومة، فلم تعد قدرًا محتومًا». الجدير ذكره، في هذا المقام، تواتر ذكر الأثر الذي أحدثته جلسات التوعية التي نفّذتها الجمعيات على هؤلاء النساء في مراجعة اتجاهاتهن نحو الأمومة، والذي عدّ من جانبهن نضجًا في شخصياتهن.

في تناول تحديات الأمومة المهاجرة، يلمس القارئ اجتهادًا لموضعة تلك التحديات في سياقاتها المعرفية بتعدد مشاربها ومقارباتها، والسياقات الواقعية بمختلف أبعادها؛ وذلك اتكاءً على المخزون المعرفي المتراكم، سواء في موضوع عيْش الأمومة (قليل التناول في مجتمعاتنا) أو في موضوع الهجرة السورية إلى لبنان (الذي جرت دراسته بكثرة). وفي موقع ما من تقديمهما، تذكر الباحثتان أنهما، وبفعل انتمائهما إلى فئة الأمهات، فإن تجربتهما الأمومية ليست بدون تأثير في المقاربة البحثية للموضوع. هذا «الاعتراف» من ملامح المقاربة النسوية التي لا تعترف بالحياد تجاه موضوع البحث. في مقدمات الفصول، مثلًا، حيث تُثبت أفكار أو اتجاهات يفترض في القارئ أن يقبل بداهة صحتها، لأنها تعبّر، على الأرجح، عن اتجاهات الكاتبتَين، وتستلهم أفكارهما. وذلك صراحة، كالقول، مثلًا، بأن منطلق الدراسة «الابتعاد عن النظر إلى الأمومة أنها أمر ناجز ثابت، بل اعتبارها عملًا بنائيًا في سيرورة مستمرة تسهم المرأة...(وغيرها من عوامل) في

تشكلها وإعادة تشكلها وفي إضفاء معان جديدة عليها...»؛ أو ضمنًا، حين تُكتب التأويلات لبعض النتائج المحصّلة والاستنتاجات بمفردات لا تخلو من نكهة قيمية، وذلك بالرغم من ادّعاء الباحثتين أنهما أعدّتا وسائل بحثهما الميداني «بطريقة تحاشت، قدر الإمكان، الأفكار المسبقة والأحكام الجاهزة والقيمية». يضاف إلى ذلك، تعبيرات تدفع بأقوال المجيبات إلى مستويات تكاد أن تكون شاعرية. ففي نهاية أحد الفصول، مثلًا، نقرأ: ولدى سؤالهن (الأمهات) عن الدرس الذي تعلمنه «من تجربة الأمومة المهجّرة»، يتراجع التهجير وتبقى الأمومة: «نعمة» و«تعويضًا عن الشقاء» و«فرحًا» و«امتلاءً» و«جناحًا يطرن به فوق الظروف» و«مكافأة بعد التعب».

على صعيد آخر، تؤكد الباحثتان أن الدراسة «المقاربة البنائية التي ترى أن الشخص موضوع الدراسة يولّد المعنى بنتيجة عيْش التجربة ... وبالتالي فإن حقيقة هذا المعاش ليست خارجه ولا يمكن اكتشافها إلا من خلال عيْش التجربة» . فهل انعكست هذه المقاربة على وسائل البحث، مثلًا؟ في نظرة قريبة إلى بنود الاستبيان المعتمد، نجد أنها تشتمل على ما تفترضه الدراسة من احتمالات للإجابة ومحاولة للإحاطة بها وبتفريعاتها، جميعًا. وباستثناء حالة فريدة، لا وجود لخانة يسعها استثارة إجابات إضافية يدعوها الباحثون، في العادة، «غير ذلك»؛ وهذه تسمح بإثارة مسائل لدى المستجيب لم تتطرّق إليها بنود الاستبيان لأنها راهنة في عيْشه، لكنها غير معروفة من معدّي الاستبيان.

إلى ذلك، فإن التدقيق في الأسئلة التي أطلقت كلام النساء في المقابلات الفردية، أو أطلقت النقاش في جماعات التركيز، المثبتة في ملحق الدراسة، يقع القارئ على أسئلة كثيرة تتصف بقدر غير قليل من الانبناء.

أتساءل: ألا يضيّق ذلك حيّز المبادرة إلى طرح مسائل غير تلك التي طرحت على الأمهات المهاجرات؟ ألا يجعل كلامهن متمحورًا حول مدارات، دون أخرى، ومولّدًا، تاليًا، لمعانٍ للأمومة مقتصرة على ما تفترضه الباحثتان حرجًا في عيْش الأمومة؟ ألا يستبعد ذلك، ربما، نواحي من عيْشهن خاص بوضعيتهن غير مدركة من الباحثتين؟

هذا كتاب جدير بالقراءة. وأهميته تكمن في أنه تناول عيش الأمومة، في مفاصل رئيسية منها في موقعين: الأول ثابت ومستقر والثاني ظرفي ورضّي؛ وفي نتائجها إبراز للثوابت والمتغيّرات في أحوال الأمهات، وفي معتقداتهن حول أمومتهن، واتجاهاتهن حيالها، كما في سلوكاتهن ذات الصلة.

3 ـ مجموعة من المتخصصين، (2017)، **أمهات سوريات** (شهادات)، الرابطة السورية للمواطنة ومجموعة «بسمة» الدولية، دمشق. <https://www.goodreads.com/book/show/60700073>

في هذا الكتاب شهادات لأمهات ثكالى، فقدن أبناءهن أو بناتهن بالقصف (مدفعي، براميلي أو كيماوي) أو القنص أو تحت التعذيب أو الإخفاء لدى جهات مختلفة... إبّان الحروب الأهلية في سورية. في الكتاب شهادات اثنتين وثلاثين منهن سجّلها فريق إعلامي

وآخر من المصورين الفوتوغرافيين. أجريت المقابلات في بيوتهن التي بقين صامدات فيها، أو في أماكن نزوحهن.

جاء في الكتاب أن ما أثبت فيه ليس كامل المقابلات؛ فهذه، وفي حال كان الكلام المرسل فيها حرًّا، قد أُثبت منها ما يصف أمورًا محددة تقع في إطار ما هدف الكتاب بيانه؛ وهذه اشتملت على رصد وضع الأسرة الحالي والسابق، وأحوال الابن أو الابنة قبل فقده، ظروف فقده (أو في حالات أكثر من واحد من الأبناء)، معنى الفقدان بالنسبة للأم والأثر الذي أحدثه فيها، اتجاهاتها ومشاعرها نحو العنف، حيال قتلة ابنها (ابنتها)، استشرافها للمستقبل وآمالها بشأنه. إن الاختيار والتبويب الذي نفذه الكُتّاب في هذه المقابلات جعل كاتبة هذه السطور تضع هذه الشهادات في مصنّف الدراسات، لا في مصنّف الشهادات.

تختلف هؤلاء النساء في **عيْشهن لأمومتهن**، لكنهن يتشاركن جميعًا في لهجة تنم عن شعورهن بأنهن من **يحق لهن الكلام**. أي، أن الواحدة منهن تملك الأهلية لأن تشخّص، وأن تستنتج، وأن تُطلق حكمًا ولأن تدعو الآخرين إلى تبنّي موقفها من موقع المجرّب الذي غدا عارفًا ومتيّقنًا مما يقوله.

• خبر الموت

الخسارة التي منيت بها هؤلاء النساء هي خسارة الأبناء (أو البنات) بالموت العنيف، أساسًا؛ لكن الالتحاق بمنظمة إرهابية خسارة توازي خسارة الموت. تروي كل واحدة من هؤلاء الأمهات تلقّيها خبر موت ابنها أو ابنتها، وتصف وقعَهُ عليها. وأكثرهن روين منامًا أو أكثر راودهن يسبق الخبر ويهيئ له. بل أحيانًا تصف الأم الثكلى حالة شعورية قابضة، غير واضحة المصدر، تؤوّل لاحقًا على أنها وقعت في اللحظة عينها التي فارق فيها الابن، أو البنت الحياة. «كنت حاسة جسمي عم يحترق: أكيد صاير له شي». في اليوم التالي جاؤوا بجثته.

من الأمهات من لا يصدّقن الخبر، ويتراءى لهن أبناءهن وبناتهن في المنام غالبًا، لكن في اليقظة أحيانًا. واللواتي لم يرين جثة أولادهن، ولم تُجرَ مراسم دفن صريحة له، تمنّين لو تسنّى لهن ذلك لعلّهن يصدقن ما لا يملكن إثباتًا حسيًا عليه، وربما بعض الأمل بتكذيب الخبر. ويشتمل ذلك على عدم استلام جثة الفقيد، أو غرقه في البحر والأمل في أنه أنقذ من جهة ما. وما يحزن إحداهن، ويبقي النار متقدة في صدرها، أنها لم ترَه ولم تدفنه بيدها «ربما لو دفنتُه كنت ارتحتُ قليلًا».

لكن من بين الأمهات من استسلمن أمام خساراتهن لحسبانها من إرادة الله. وقبول ما «كتبه الله». ومن خسرت طفلتها الجميلة تعزي نفسها: «..يبدو أن الله خلقها لأجله وليس لأجلنا».

• مُداراة الخسارة: موجودون

ولا يقتصر الأمر على تكذيب خبر الموت لدى تلقّيه. بعضهن يعزين ذواتهن بـ«بقاء القضية التي استشهد لأجلها». وهناك أمهات يصرّحن عن وجود أبنائهن في أحلام اليقظة

أو في مناماتهن، أو حتى في هلوساتهن. في أحلامهن يكون فيها أولادهن في زضعية هانئة فيتلمسون فيها «الصبر والسلوان». أو يسمون أطفالًا باسمهم رغبة في بقاء ذاكرتهم حيّة.

وتأمل أمهات أن تعوّض خساراتهن بوجود آخرين من صلب من ودّعنهم. فمن ترى أنها، وإن خسرت ابنها «الغالي» والأقرب إليها من كل أولادها، ترك لها «طفلته ذكرى منه». وأخرى وجدت نفسها حاملًا بعيد استشهاد ابنتها، فتوقّعت أن تواسيها الطفلة القادمة، ولتبقي روح الفقيدة معها.

• محو الذات وتجاوزها

لعل تجهيل الذات ومحوها من الوجود أمام الفاجعة يجعل تلك الفاجعة بحجم تلك الذات الضامرة، لتصبح هويتها «تلك التي فقدت ابنها»، لا غير. أما من فقدت ثلاثة من أبنائها فتدرك نفسها متوفاة: «عمري انتهى مع أولادي». وإذ تحاول إحداهن «البقاء حية لأجل الباقين»، فإن بعض الأمهات وجدن سببًا لاستمرارهن في الحياة، وتجاوز خساراتهن، بالتماهي مع القضية التي مات أبناؤهن في سبيلها. وإحداهن التي تحمل ذاكرة المجازر التي تعرّض لها الأرمن والسريان لا تفكر في الهجرة، بل تدعو الناس «أن يدافعوا عن أرضهم» (كما فعل ابنها الشهيد). وتفخر أخرى بابنها الذي «واجه أعداءنا... على كل أم أن تفخر بابنها الذي تقدمه شهيدًا... طريق الشهادة فخر لكل أم». وتلك التي ترى أن ابنها دافع عن الجميع عربًا وأكرادًا وعن «الحرية والكرامة لكل الشعب... ابني هدية للوطن». ترضخ إحدى الأمهات، أخيرًا، لخيار ابنها القتال إذا انتهت الحرب وبقيت الأرض، «عندئذٍ سأشعر أن دم ابني لم يذهب سدى».

في كلام بعض الأمهات، بدت القضية التي استشهد من أجلها الأولاد قضيتهن أيضًا. لكن ذلك ليس حال الجميع. فتقول إحدى الأمهات: «أنا وأهلي وزوجي ما إلنا علاقة بأي شي... (لكن) تعرضنا للأذى كما الآخرين». وأم ثانية تعلن أنها «غير فرحة بلقب أم الشهيد. كنتُ أفضل لو بقي حيًا هو ورفاقه».

• وحّدتهن الأمومة

وتشترك هؤلاء الأمهات في تعاطف وجداني مع كل الأمهات السوريات. «ما ظل أم ما شافت الوجع، ما احترق قلبها»، تقول إحداهن. وتتمنى ما حدث معها ألا يتكرر مع أي أم أخرى . وأم أخرى، وبالرغم من أنها تعرف من عذّب ابنها فردًا فردًا، تعلن مسامحة أهل المعذِّبين «...فبينهن أمهات ولا ذنب لهن في ما حصل». ويسعى هؤلاء لمواساة مثيلاتهن ممن فقدن أبناءهن. وتقول إحداهن: «عندما ألتقي بأمهات أخريات استشهد أبناؤهن، نتبادل قلوبنا». بل إن بعضهن قد ألّفن، مجموعات عفوية من نساء يعانين الفقد نفسه، يساند بعضُهن البعضَ الآخر.

ليس هذا موقف كل الأمهات. تتساءل إحداهن التي قتل ابنها تحت التعديب «كيف بدي سامح؟» وأخرى تقول إن مسامحتها للذين «قتلوا شبابنا» مشروطة بإحقاق العدالة ومحاكمة

القتلة: «..لن أرتاح والقتلة يسرحون بيننا». وثالثة تقول إن بالها لن يهدأ حتى يُحاسب المجرمون وهي على يقين «بأن الرب سينتقم لنا». وبعضهن مقتنعات أن الله هو المنتقِم.

• **الماضي الجميل ... والآتي المرتجى**

تستعيد الأمهات ذكريات التشارك في الأفراح والأحزان مع مختلف الطوائف في قريتها حيث كان «الجميع يعيشون بسلام»، وحين «كنا عائلة واحدة». وإحداهن تصرّح بعدائها للثورة حيث «يُداس فيها الشباب بالأقدام... كان من الأفضل أن يبقى الحال على ما هو عليه». والعذاب الذي اختبرته بعض الأمهات في النزوح عزّز الحنين إلى حيواتهن الماضية «والله إذا رجعت، ما عاد اطلع منها، لو عطوني الذهب هون».

كلهن، ودون استثناء، يتمنين تَوقّف الحرب وعودة السلام. هذه تعابير استخدمت حرفيًا من الجميع تقريبًا. «بيكفينا وجع» هي صرخة إحداهن التي خسرت ابنها وهو يقاتل التكفيريين. وثانية كارهة للقبها «أم الشهيد»، تريد أن «تعود الشباب إلى بيوتها وأهلها»... وتتمنى أم التي «انسرقت أحلامنا»، أن يتوقف نزيف الدم. وكلهن يحلمن «بحياة هادئة فيها السلام والتعايش بين الجميع».

تلخيصًا

هذه الشهادات توفّر للقارئ المعاني التي تختبرها الأمهات الثاكلات على فقدهن. صحيح أن معدّي هذا الكتاب لا يعلنون، صراحة، كيف أُطلق الكلام في روايات الأمهات، لكن العناوين التي برزت في بوح هؤلاء الأمهات كانت متشابهة، وبخاصة في ما يطول إلى أمرَين في نهاية كل شهادة: الميل للمسامحة وآمال الأم-الشاهدة أو تمنياتها لمستقبل بلدها. هل طلب المحاورون- الباحثون من الأمهات إبداء رأيهن في المسألتَين، أم أن الكلام عنهما استخرج من مضمون رواياتهن ليبدو وكأنه خلاصتها، فيصلح لرسم صورة لهؤلاء الأمهات داعمة لحجتهم في التسويغ لدعودة الأمهات إلى المشاركة في الحوار والمصالحة الوطنية في إطار قرار مجلس الأمن 1325 ؟

ثانيًا: الشهادات

1 ـ يسرى مُقدَّم (2020)، **صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

في فصول خمسة عشر، نقرأ في كتاب يسرى مُقدَّم كلامًا نضرًا لكنه، مفارقة، يحكي حكاية مكرّرة في تجاذب مُنهِك بين توْق الكاتبة لأن تتماهى بأمها، من جهة، ورعبها من أن تمسي قصة حياتها شبيهة بقصة حياة أمها تلك، من جهة ثانية. هو تجاذب رافق الكاتبة في مراحل حياتها منذ الصغر، ويكاد لا يغيب عن أية صفحة من صفحات كتابها المئة والتسع والثلاثين، ليستقر راهنًا على مشاعر تنحو لأن تهادن أمومة أمّها؛ تلك التي كانت غامرة لعيْشها إلى حدّ إلغاء ذاتها. في الوقت نفسه، تحاكم الكاتبة عيْشها هي لأمومتها الأولى التي

«جنحت عن مذهب أمها». هي الأم المتفانية إلى حد سجن نفسها، كما ينبغي لها أن تفعل هي وسائر بنات جنسها، في قفص من «الإنجاب والإمتاع».

وأمومة الكاتبة الأولى هذه، والتي سادت فيها فردانية نرجسية أحالتها الكاتبة إلى «روح العصر»، وثوراته الكثيرة التي زيّنت لكثيرات وكثيرين أفول أهمية الأمومة في شكلها النمطي السائد، تصورًا وسلوكًا؛ وذلك في حين افتقادهن لمثال أمومي آخر تحتذيه النساء في عيْشهن المختلف المرتجى، والذي يرغبن في كونه مختلفًا عن أمومة أمهاتهن. ذلك المثال المتناغم مع تراجع مأمول لسطوة النظام الأبوي في فرض هيمنته على حيوات النساء وعلى خياراتهن. وإن هي مثّلت دور الأم التقليدي في أمومتها الثانية والثالثة، خوفًا من تكرار تجربة الأمومة الأولى «يوم كنتُ خائفة وغافلة»، فإن ذلك لم يشفع لها، وكان أن «اختفت» عن صورة العائلة التي جمعت كل أفرادها إلّاها، وكأن الجهد المبذول لسلوك أمومي مختلف عن أمومتها الأولى ذهب هباء؛ هي الصورة التي أُخذت ليلة الميلاد، ونشرت على الفايسبوك صباح 25 كانون الأول/ديسمبر، وأعطت الكتاب عنوانه[17].

التجاذب المنهك يشدّ الكاتبة إلى قطبَين متضادَّين، وكأن الواحد منهما لا يرضى بأقل من هيمنة مطلقة على حياتها وخياراتها؛ هذا التجاذب تصوغ الكاتبة وقعه عليها في منتهى الكلام، وخلاصة الاختبار الحياتي، في الفقرة الأخيرة من الفصل الأخير: «... مخطئ من يظن أن بمقدور المرأة أن تناوش، ببساطة، المقدّسات والمسلّمات الإكراهية، وأن تحسم بيُسر صراعاتها، ولا سيما، إذا كانت المرأة أمًا!». هذا النص/ الكتاب ثبت بتفاصيل «مناوشة» الكاتبة لـ«المقدسات والمسلّمات الإكراهية» الملحقة بمعاني الأمومة في ثقافاتنا الاجتماعية الأبوية، والأثر البليغ الذي أحدثته هذه المناوشة في وجدان الكاتبة، وفي تكوّن هويتها الأنثوية في تخييلاتها لعيْش أمها لأنوثتها وعبر رفضها الاعتراف بأن أمها أيضًا أنثى[18]. كما نجد في طياته، صراحة أو ضمنًا، توقًا إلى أمومة أخرى. هي أمومة لا تشبه أمومتها الأولى التي أورثتها مشاعر ذنب بسبب كونها كانت ـ وفق ما تصفها ـ «غائبة» لأنها خوّلت مهامها إلى أمها. ولا أمومتها الثانية التي شاءتها عكس الأولى. فإذ جعلت بينها وبين أمومتها الأولى «حجبًا عمياء»، فهي أزالت هذه الحجب نهائيًا في الأمومة الثانية، هكذا «هربتُ من التقصير إلى قصاص الذات». لكن الكاتبة تستشرف أن «ثمة طرق للنجاة بالأمومة»، ولعلّ تفاؤلها ناجم عن أملها بأن تكون أمومة ابنتيها نهجًا مختلفًا الطرق التي سلكتها لعيْش

(17) هو اختفاء كتبت عنه إيمان مرسال وعن معانيه وتطوّره، بالتفصيل، في فصل من فصول كتابها **كيف تلتئم ... بعنوان « كيف تجد أمك في صورتها...».**غير أن اختفاء الأم في الصور الفوتوغرافية التي صوِّرت في الأستوديو كانت، بحسب مرسال، مقصودة وبمعرفة الأم لأجل إبراز الطفل. لدى مُقدَّم كان إخفاؤها من الصورة صادمًا وباعثًا على الشعور بـ«الهجران» والعتب والغضب، بل إن غيابها ـ وفق ما تسرّ لأمها ـ كان بالنسبة إليها شكلًا «من أشكال الموت».

(18) يمكن وضع سرد العلاقة بين الكاتبة وأمها، الخاصة حول أنوثة أمها، وحول تعبيراتها الجسدية خاصة، في إطار الأدبيات التي تكاثرت في سبعينيات القرن الماضي والتي تناولت علاقة الفتاة بأمها، وأثر هذه العلاقة في تشكيل هوية البنت الأنثوية، في بعدها الجنساني بخاصة.

أمومتها الباعثة على كل هذه المشاعر الثقيلة الوطء عليها، بدءًا بما قد يشخّص باكتئاب ما يعد الولادة، وانتهاء «بالإحساس الحاد بالتخلّي والإهمال، ويتخلّق لي أنني منسية ومتروكة» من بعض عوارض متلازمة «العش الفارغ»، مرورًا بعذاب من صراعات تتجاذبها من كل الاتجاهات ـ هو متن الكتاب بأكمله.

نصّ يسرى مُقدَّم حكاية شخصية لاختبار عيْش الأمومة الحميم كتبته الكاتبة لتشاركنا تقلّبات هذا العيْش وتناقضاته. هو تأمّل في ذلك العيْش، وسبر شخصي في معاني الأمومة في سياق التحوّلات الثقافية- الاجتماعية المتقلبة بين ظهرانينا. إن هذا السبر وذلك التأمّل والشحنة العاطفية المرافقة لهما تعمل، في رأيي، إلى تنبيه القارئ (وربما إقلاقه؟) إلى قبوله غير المشكك في صحة الخطاب الرائج حول الأمومة، ومسلّماته. هذا في حال كان القارئ أو الباحث غافلًا عن تقلّبات الأمومة في الأزمنة والأمكنة، وقابلًا بالثوابت الملحقة بها.

تُجمِع الباحثات في موضوع «عيْش الأمومة» أن كلام النساء ـ كل النساء ـ عن اختباراتهن كأمهات استدعى اختباراتهن لبنوّتهن. يسرى مُقدَّم ليست استثناء. فحين تخاطب أولادها، وجاهة أم تخيّلًا أم كتابة ـ تستدعي أمها لتصف لها ما دار بينها وبينهم ولتجعلها شاهدة على مشاعرها المتلاطمة: مشاعر الحب والذنب والحيرة والندم والرفض والتمرّد. وهي تجعل أمومة أمها معيارًا تقيس بإزائه حجم حبها لأولادها وتعبيراته، وحين تضيق بتبعات أمومتها العاطفية عليها تسائلها في سرها : « كيف أمكنك الاحتمال والصبر حتى أنفاسك الأخيرة»؟

هذا الكتاب يقدّم مادّة مرحّبًا بها للباحثة والباحث في الدراسات النسوية المهتمة بإعادة التفكير في معاني الأمومة وفي تفكيك الإملاءات «البديهية» والبسيطة حول عيْشها، والمصوغة قي إطار المنظومة الجندرية الأبوية، غالبًا. وهو يقدّم إضافة نوعية على تواتر خواطر أمهات في تعبيراتها المختلفة لأن ما جاء فيه يعزز الثقة بصدق ملاحظات مبعثرة في مواقع مختلفة، لعلّ وسائل التواصل الاجتماعي الأكثرها صراحة[19]، ويضفي عليها كثافة تفعل معًا ما تفعله التعبيرات الثقافية المختلفة في إلهام الباحثات والباحثين، بعامة، والنسويين منهم خصوصًا. هذا النصّ بمثابة دراسة حالة/شهادة شخصية/رواية حياة، ويثير أفكارًا وتساؤلات ذهبت بعيدًا في سبر مسكوت عنه في حيوات الأمهات في هذا الزمن الحائر. في الأدبيات البحثية النسوية تعدّ هذه جميعها وسائل كشّافة، لا بديل لها، لنواحٍ غير مصرّح عنها من حيوات النساء.

2ـ إيمان مرسال، (2016)، **كيف تلتئم: عن الأمومة وأشباحها**، مفردات، ريكلام- ألمانيا.

في كتيّب صغير الحجم، لا يتجاوز حجمه الـ 10/ 18 سم، سرد لعيْش **الكاتبة** لأمومتها في فصول أربعة، اثنان منها نصَّان لمحاضرتَين، وفيها محاولات للإمساك بـ«أشباح» الأمومة لعلها، بذلك، «تلتئم» جروحاتها. وتتناول الكاتبة/الشاعرة الموضوع بتكثيف كلامي يتنقل،

(19) انظر، مثلًا: (بيضون، 2021: 217ـ197).

دون إنذار، بين وصف أحداث وأشخاص من مجال الكاتبة الحميم، حاضرًا وماضيًا، وبين أحداث وأشخاص من روايات وأساطير و«حواديت» طفولية استدعيت، جميعها، لتأويل مشاعر الكاتبة الصاخبة التي تصيب القارئ (هل أعني القارئة؟) برذاذها، فيصعب عليه النظر إلى تفاصيلها من مسافة تسمح بنقل صورة إجمالية عنها. هذا الانتقال الذي يشبه التداعي الحر بحيث تتولد الجملة عن سابقتها وتلد، بدورها، الجملة اللاحقة بانسياب طبيعي وخلاب. كما أن المشاعر التي تطلقها رواية الكاتبة لعيْش أمومتها تبدوغير مقصودة بسبب اللغة شبه الحيادية، بعذوبة بساطتها، برغم تخلل السرد أبيات من أشعار الكاتبة، أو أخرى مستعارة من آخرين وأخريات.

في فصل بعنوان «الأمومة والعنف»، تصف الكاتبة الصدمة التي انتابتها لدى التأكد من الحمل الأوّل، بالرغم من أنه حمل مقصود. وتناولت الكاتبة فيه مسائل طرحت على كل أمّ لم تكتفِ بمعارف أمهات سبقنها، فاعتمدت مراجع وفرتها لها «مؤسسات» حديثة كثيرة، فتعمل على اجتياحها مشاعر متجاذبة وغير مألوفة تجاه هذا الحدث الجلل، واتجاهات تشكّلت عندها بالاختبار الصعب. وهي تدرك امتياز حالتها في كونها ولّدت طفلها الأول في بلد من العالم الأول، فبرز السياق الثقافي المحيط بأمومتها بامتيازاته، كما بافتقاده لمرجعية مستقرة يمكن الركون إليها، والاتجاهات النسوية المتجاذبة نحو الأمومة، من بينها. وكما هي حال معظم الكاتبات في موضوع «عيْش الأمومة»، استدعت الكاتبة أمها، وأمهات أخريات، مثالًا متجاذب الوقع على عيْشها هي لأمومتها، وتستدعى كذلك عيْش نساء أخريات لبنوّتهن لتأكيد التجاذب المذكور: نساء يكرهن أمهاتهن وأخريات يقدّسْنها. وهي ثيمة تعيد الكلام عنها بالتفصيل في فصل أخير من الكتاب بعنوان «كيف تعيْش في طريق الحداد» المثقل بذكرى أم الكاتبة المتوفية حين كانت في سن السابعة، ولكونها شاهدة على وقع موتها على جدتها، وما يطلقه خسران الأم لابنتها من تداعيات تمثلت بتعاظم خوفها على ابنها ذي الميول الانتحارية.

في هذا الفصل كلام عن الحب الذي يجتاح الأم فلا يسعها ضبط شدّته، ولا تقلبات أحوال موضوعه: رفاهه وأساه، صحته ومرضه، برغم من أنه منها ولها، ومرافقته منذ لحظة وجوده أو حتى قبل ذلك. هذا الحب الغامر للوجود والذي يفوق الاحتمال في شدّته، يتجاور مع صراع مع الطفل المحبوب، ابنًا كان أم بنتًا، لحظة تشكله، بيولوجيًا، كما هو كلّ صراع بين كائنَين متلاصقين بدافع البقاء. ولعلّ أهمية التعبير عن الصراع المذكور قائم في إدراكها لكونه يقع على «هامش» الخطاب العام، لا في متنه «حيث تسود سرديات الأمومة الموسومة بالإيثار والتضحية». التضحية والإيثار والحب، جميعها، لا تخلو «من حب الذات ومن أنانية الأم نفسها»، مخلّفة، لدى كل الأمهات، دون استثناء، مشاعر ذنب ناجمة عن «المسافة بين مثالية الأمومة في المتن العام وبين إخفاقاتها في الخبرة الشخصية». والذنب ثيمة قائمة بثبات واستقرار لدى كل الأمهات دون استثناء. وتعرض الكاتبة أخيرًا لمعضلة الانفصال في الاتجاهين: تماهي الأم مع الطفل في فطامه، واستعادة الأم لذاتها ومشروعها الحياتي الذي عطّل مساره طفلها.

إلى ذلك، فإن مشاعر الذنب مصحوبة بالألم، وبتهميش كل ما عداها، تتجلى في فصل كتبت فيه الكاتبة يومياتها الجاثم عليها تشخيص عوارض ابنها بالاضطراب النفسي المعروف في كتب التشخيص الطبنفسي بـ«ثنائي-القطب»، والذي يتمثّل بأحد قطبيه بعدم الرغبة في الحياة، وتتناوب أفكاره ميول انتحارية. وفي الفصل أيضًا «محاكمتها» أمام قضاة يسائلون صلاح أمومتها في اتهام ضمني لمسؤوليتها عن اضطراب ابنها النفسي؛ وحجتهم في مقاضاتها انشغالها بأمور على حساب رفاه ابنها وصحته النفسية. غير أن دفاعها عن نفسها بقيت حججه في دواخلها ... «كنت سأحكي له (القاضي) كم أحب طفليّ...» وتعبيرات ذلك الحب السلوكية، لكنها لا تفعل! بإزاء ذلك، لجأت إلى شيخ يمارس الشفاء الشعبي في ممارسة «كنتُ فيها مجرّد أم. أم فقط. بلا أفكار ولا معتقدات. مشدودة بحبل من اليأس والرجاء... أن تكوني أمًّا يعني أن تؤمني بقوة عليا أو تكوني أنت نفسك آلهة. ليس هناك مكان وسط».

وفي الفصل الأخير المذكور سابقًا، جعلتنا الكاتبة « ...التي لا تؤمن بشيء»، شهودًا على تراجع العقل والعقلانية أمام مشاعر العجز عن إنقاذ ابنها... تلك المشاعر التي تعمل على تهدئتها بـ«عدودات» و«رقوات» تعلمتها من جدّتها، والتي يفترض فيها حماية ابنها من الحسد (لأنه محسود!) من جانب «... عين اللي شافك ورآك وما صلاش على النبي» . وفيه أيضًا تجثم ثيمة الموت التي تلاحق الأمهات وتجعل من بناتهن يتيمات ومن أمهاتهن (الجدات) ثكلات أبديات في سعي لا يكل لتهدئة مشاعر الذنب. الأمهات، إن غادرن الحياة، فلا يغادرن الأحلام ... أحلام الكاتبة التي تتالت لأجل أن تقبل الكاتبة بخسارتها و«ألا تخاف من موتها (أمها) مرة أخرى». لكن إيمان مرسال، وإن تمحور سردها في الفصل الأخير هذا حول فقد الأم، إلا أنها تنهيه بالعودة إلى أمومتها الخاصة: «لأجل أن أفهم يوسف (ابنها) ولو قليلًا، كتبتُ هذا الكتاب».

المراجع

بيضون، عزة شرارة (2021). «عيش الأمومة على صفحات الفيسبوك» في: عزة شرارة بيضون. **بعيون النساء: شؤون اللبنانيات وقضاياهن**. بيروت: مؤسّسة دار الجديد.

الحاج سليمان، عزّة وبيضون، عزّة (2023). **نساء لبنان في القضاء اللبناني: تعزيز السائد وإهمال الهوامش**. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

الحسين، رولا (2022). «سأبتسم في كل مرة أعي فيها واقعي الخالي من الأمومة.» رصيف 22 (14 أيلول/سبتمبر، <http://rb.gy/n1btv>.

Kawkash, Samira (2011), "New Directions in Motherhood Studies." *Signs: Jour of Women in Culture and Society*: vol. 36, no. 4, pp. 969-1003.

. Rich, Adrienne (1976). *Of Women Born: Motherhood as Experience and Institution*. Lomdon: W. W.Norton.